صفحة من تاريخ النقد

في الأدب العربي الحديث

١ — مقدمة

يشتمل هذا البحث على دراسة كتاب « منهل الورّاد في علم الانتقاد » لقسطاكي الحمصي أحد أعضاء مجمعنا الراحلين . وهو أول كتاب في النقد الحديث نشره كاتب سوري في مصر سنة ١٩٠٧ م بعد كتاب « الوسيلة الأدبية » للشيخ حسين المرصفي بعشرين سنة تقريباً ، وقبل كتاب الديوان للمازني والعقاد بأربع عشرة سنة .

ويعدّ كتاب « منهل الورّاد » أول كتاب عربي حاول إرساء قواعد النقد على أسس ثابتة . وهو مختلف كل الاختلاف عن كتاب « الوسيلة الأدبية » للمرصفي ، لأن هذا الكتاب يريد أن يكون أداة تعليم اللغة العربية وآدابها ووسيلة إنشاء الشعر والنثر على حين أن كتاب « منهل الوراد » يريد أن يضع قواعد علم جديد يعصم الفكر من الخطأ في الحكم على قيمة الآثار الأدبية . ولهذا العلم في نظر قسطاكي الحمصي موضوع مستقل بذاته . وله مبادي كلية وقواعد عامة تنطبق على جميع الموضوعات الحسية والعقلية . فكأنه صناعة نظرية تتضمن قواعد النقد العلمي ، والنقد الفني ، والنقد التاريخي ، والنقد الأخلاقي ، وليست قواعد النقد الأدبي إلاّ قسماً من أقسام هذه الصناعة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٢ — هل النقد علم

ما هي حقيقة النقد ، هل هو علم أم فن ؟ هذا أول سؤال يخطر بالبال عند الكلام على قواعد الانتقاد التي تضمّنها كتاب « منهل الوراد » . ونحن وإن كنا لا نريد الآن أن نعمق النظر في هذه المسألة الفلسفية ، إلا أننا نرى مع ذلك أن نقدم لها بكلمة عامة ، وهي أن العلم مؤلف من أحكام وجودية أو خبرية تعبر عن قوانين الأشياء كما هي في الواقع ، على حين أن النقد مؤلف من أحكام إنشائية أو تقديرية تفاضل بين قسيم الأشياء بحسب قربها من الصور الفانية للحق والخير والجمال أو بعدها عنها . ومعنى ذلك أن النقد ليس علماً بالمعنى الفلسفي الدقيق وإنما هو فن غايته التقويم أي إبراز المحاسن والمساوىء والمقارنة بينها وإذا جوّزنا إطلاق اسم العلم على النقد كما نجوز إطلاقه على الأخلاق والمنطق فلنقيده بقولنا إنه علم قاعدي أو صناعة نظرية غايتها تقدير قيم الأشياء لا الاقتصار على استقراء صفاتها الواقعية . ونسبة هذه الصناعة إلى الأدب كنسبة المنطق أي الفكر ، أو النحو إلى الكلام ، أو العروض إلى الشعر . والفطرة الطبيعية لا تغني عن تعلم قواعد النقد ، اللهم إلا " أن يكون صاحبها مؤيد النفس بصدق العاطفة وسعة الخيال ، وقوة الحكم ، وسلامة الذوق ، نعم إن الأدب لا يوزن بمثاقيل النظم ، ولا يتأتى له الخلود إلا " إذا جمع بين جودة الصوغ وروعة الخيال . ولكن العلم بقواعد النقد الأدبي أنفع من الجهل بها ، ولا معنى لقول بعضهم إن هذه القواعد تفرض على الأديب قيوداً ، لأن الفن كما قال (اندره جيد) يعيش في القيود ويموت في الحرية .

ومهما يكن من أمر فإن قسطاكي الحمصي يزعم أن النقد علم يقوم على أساس ثابت لا يتزعزع ولا يتبدل بتبدل الزمان والمكان . وسبب ذلك اعتقاده

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أن للحق والخير والجمال صوراً غائية يقاس بها جمال الآثار وكمال الأفعال ، فإذا استحسن الناقد شيئاً لم يستحسنه لأنه جميل في عينيه فقط ، بل استحسنه لأنه جميل بذاته ، وهذا الرأي كما ترون بعيد كل البعد عن آراء الذين يزعمون أن مقاييس النقد مفاهيم ذاتية . وإذا صح أن لقيم الحق والخير والجمال صوراً غائية وجب أن يكون هنالك طرق فنيّة وقواعد عملية تنقل هذه القيم من حيز التصور إلى حيز الفعل . والغرض من علم الانتقاد بيان هذه الطرق الفنية ، والقواعد العملية التي ينبغي للكاتب أو المتفنن اتباعها لبلوغ تلك الصور النائية . وفي كتاب منهل الوراد استقصاء لقواعد هذا العلم الجديد الذي زعم قسطاكي الحمصي أنه أول من اهتدى إليه .

٣ — موضوع كتاب منهل الوراد وأقسامه

قال قسطاكي الحمصي في مقدمة كتابه : « كل ما كنت اطلعت عليه من كتب هذا الفن في اللغة الفرنسية لا ينطبق على ما عقدت على تأليفه النية إلاّ من وجه خفي اجمالي ، وطرف ذهني خيالي ، فإنّ جميع ما قرأته لجهابذة هذا الفن المشهورين مثل (سنت بوف) ، و (رينان) و (تين) ، و (فرديناند برونيتير) و (أميل فاجه) و (جول لومتر) ، (وآدولف بريسون) وغيرهم من المعاصرين لا يتعدّى نقد مؤلف أو مصنوعات ومؤلفين ومتفننين ، فيما أن الغرض الذي كنت أرقى إليه . والمنهل الذي كنت أحوم عليه ، هو وضع كتاب في قواعد هذا الفن الجليل يبين للطالبين استيعابها في وقت قليل » (ص : ٤ ، ٥) وقال أيضاً : « لم يوضع بالعربية كتاب لقواعد علم الانتقاد ، ولا في غيرها من اللغات الافرنجية ، إلاّ أن يكون شيء لم يصل خبره إلينا ، وكذلك قد علمت أنه لم يؤلف بالعربية كتاب في تبويب رتب الشعر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والإنشاء ، فاقتحمت هذا السدّ مستنجداً بحلم أهل العلم . فإن كنت قد أصبت في شيء فليغتفر لهذا بذاك ، وإن كنت قد أحسنت في الوضعين — وما أبعد ذلك — فلا تنكرنه ، فمع الخواطىء سهم صائب ، وإن كنت قد ضبطت في الفنين — وما أحسبني إلا كذلك — فانظر إلى صنيعي بعين الحليم ، لا المتعنّت ولا ذي الطبع اللئيم . وقل كلمة طيبة يغفر لك الله ، « إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم » (ص : ١٧٧ — ١٧٨) .

فهذه الأقوال كلها تدل على أن قسطاكي الحمصي كان على تواضعه شديد الافتخار بالعلم الذي ظن أنه اهتدى إليه ، شأنه في ذلك شأن كل من يعتقد أنه كشف عن شيء جديد مستحدث الصنعة . فالموضوع في نظره مبتكر وإن كان غيره قد طرقه قبله (١) .

وسنبين في تلخيصنا لكتاب منهل الوراد ، وفي تحليلنا لموضوعه ، أنّ صاحبه لم يوفق لتطبيق قواعد علم الانتقاد تطبيقاً محكماً ، فكان كمعلم المنطق الذي يعرف أشكال القياس ولا يجيد تطبيقها .

على أنه من الحق علينا أن نعترف بما في كتاب منهل الوراد من جهد يشهد لمؤلفه بدقة البحث ، وهو وإن كان كثير التخبط في التطبيق ، كثير الاستطراد في الشرح والتعليق ، إلا أن له فضل السبق في توجيه الأنظار إلى ضرورة النقد وفائدته وقيمته وتأثيره .

---

(١) قال صاحب المقتطف في نقد كتاب منهل الوراد : « إن الموضوع مبتكر في العربية كما قال حضرة المؤلف لم نَرَ لأحد كتاباً فيه ، وإن كنا قد طرقناه غير مرة في المقتطف فنشرنا فصلاً طويلاً في الانتقاد في المجلد الثاني عشر منه شغل ثماني صفحات ، وانتقدنا كتباً كثيرة كان جزاؤنا من أصحابها اللوم والتعنيف فعدلنا عن الانتقاد إلا في ما ندر » (المقتطف الجزء الثالث من المجلد الثاني والثلاثين ، مارس ١٩٠٧ ، ص ٢٤٥) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يتألف كتاب منهل الوراد من ثلاثة أجزاء :

الأول قسمان أحدهما في تاريخ النقد وموضوعه (ويقع في ثمانية فصول) والآخر في قواعد النقـــد وفروعه ، وهو تتمة للقسم الأول (من الفصل الأول إلى الفصل الحادي عشر) .

والثاني في قواعد النقد وفروعه ، وهو تتمة للقسم الأول (من الفصل الثاني عشر إلى الفصل الرابع والعشرين) .

والثالث في موضوعات متفرقة : كتعريف الأدب عند العرب ، والنقد الأدبي ، وفن الروايات ، والتأليف ، ومراتب المؤلفين ، والتجديد والتقليد ، وتجرد الناقد ، وتحلم المنقود ، والموازنة بين الالعوبة الإلهية لدانتي ورسالة الغفران للمعري .

وقد قصرنا كلامنا في هذا المقال على الالمـام بما جاء في الجزء الأول والثـاني من الموضوعات أما موضوعات الجزء الثالث فستناولها بعد ذلك في مقال خاص .

٤ ــ تاريخ النقد

لتاريخ النقد عند المؤلف قسمان : أحدهما تاريخ النقد عنـد العرب ، والآخر تاريخ النقد عند سائر الأمم .

١/٤ ــ أما تاريخ النقد عند العرب فقد خصّه المؤلف بفصل واحد تكلم فيه بإيجـاز على القدامى والمحدثين ، فذكر من القدامى ابن قتيبة ، وابن المقفع ، وأبا فراس الحمداني والخوارزمي ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد ، والآمدي ، وأبا الحسن علي بن عبد العزيز ، ومن المحدثين ناصيف اليازجي ، وبطرس البستاني ، وكرنيليوس فنديك ورفاعة الطهطاوي ، وأحمد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فارس الشدياق . وليس في هذا العرض التاريخي تحليل دقيق ولا إحاطة تامة بطرق هؤلاء النقاد وأساليبهم . وسبب ذلك أن البحث التاريخي عند المؤلف لم يكن مقصوداً بالذات ، بل كان مقصوداً بالعرض من جهة ما هو تمهيد للكلام على موضوع النقد . وربما كان خير معيار للحكم على قيمة هذا التحليل التاريخي موازنته بما كتبه المتأخرون عن النقد المنهجي عند العرب ، فان هذه الموازنة تكشف لنا عن قصر باع الحمصي في كلامه على تاريخ النقد ومراحله . أضف إلى ذلك أن المؤلف كثيراً ما يطلق الحكم جزافاً ويستطرد في الكلام على الأدباء الذين نكبوا في الماضي وعوقبوا بالسجن أو بالرجم أو بالتمثيل . وغرضه من ذلك كله أن يثبت « أن العرب لم يحددوا للانتقاد رسماً ، ولا عرفوا له اسماً ، ولا اشتقوا من اسمه فناً ، وإن كان الانتقاد من الغرائز التي عرفوا بها في كل زمان ومكان ، حالهم كحال الطفل تدفعه الغريزة إلى الوقوف أولاً ثم المشي ، فلا يقف حتى يقعد ، ولا يمشي إلاّ ليقع ، ثم ينهض ليعود إلى عمله من السير على غير هدى ، فيسقط في حفرة قد تكون سبب هلاكه ، لأنه طلب الشيء قبل أوانه » (ص ١٠) ، وفي هذا القول كما ترى تعسف وجور ، لأنه إذا صدق على بعض النقاد القدماء فهو لا يصدق عليهم جميعاً ، وفيهم من وضع أساساً عاماً للنقد كعبد القاهر الجرجاني وغيره ، وان كان هذا الأساس لا يتضمّن جميع المقاييس التي اهتدى إليها المحدثون .

٢/٤ — وأما تاريخ النقد عند سائر الأمم فقد اختصه المؤلف بأربعة فصول ذكر فيها تاريخ النقد في القرون الوسطى والقرون الحديثة بكلام مقتضب تضمن بعض الأحكام الشخصية ، كإعجابه بالنقاد الفرنسيين ، وتفضيلهم على غيرهم من نقاد سائر الأمم ، واقتباسه بعض أقوالهم كقول (بوفون) : مرآة المرء انشاؤه ، وقول (سنت بوف) : ان النقد وسيلة للكشف عن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أخلاق الكاتب ومكنون فكره ، وغير ذلك كثير . ومع أن تاريخ النقد الفرنسي يمثل في نظر المؤلف تاريخ النقد العام عند سائر أمم أوربة (ص ٩٤) فانه لم يبحث في هذا التاريخ لذاته بل بحث فيه بالعرض من جهة ماهو وسيلة لاستقراء بعض قواعد النقد . مثال ذلك قوله :

« إن سر التأثير إعطاء المعاني حقها من الألفاظ وحسن التركيب والوزن والقافية والجمال الطبيعي » وقوله : « المراد بالجمال الطبيعي . . . البعد عن التكلف والتعمل والتقليد ، ثم مطاوعة القريحة والجري مع الطبع » وقوله : « إن علم الأدب هو لسان حال المجتمع الإنساني ، وإن فن النقد معين لفن التاريخ » وقوله : « إن عماد النقد وأساسه الصدق » فهذه الأقوال كلها مقتبسة من أقوال النقاد الفرنسيين ليس للمؤلف فيها إلا فضل الاختيار والعرض والتفسير ، ومع أن المؤلف يحلل أمثلة من الأدب العربي للبرهان على صدق هذه الأقوال فان تحليله لايخلو من الضعف لتسرعه في الحكم والتعميم .

٥ — أركان النقد

ولعل أهم ما يتميز به كتاب « منهل الوراد » اشتماله على قواعد صورية وأحكام كلية تدل على أن علم الانتقاد ذو موضوع مستقل عن موضوعات سائر العلوم .

وحق هذا العلم أن يسمى بمنطق الانتقاد أو بفن الانتقاد ، لأن قواعده لا تعبر عما هو عليه الشيء في الواقع ، بل تعبر عما يجب أن يكون ذلك الشيء بالقياس إلى الصور الغائية المرتسمة على صفحات الذهن . ولا يمكن أن يصبح النقد علماً إلا إذا كانت هذه الصور الغائية التي يستمد منها العقل قواعد الترجيح والتقويم أشياء متحققة في الوجود ، وإلا إذا انقلبت قواعد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

النقد إلى أحكام وجودية أو قوانين علمية تضبط علاقات الأشيـاء . وسواء أكان الحق والخير والجمـال أشياء موجودة في الأعيان ، أم متصورة في الأذهان ، فإنّ لها في نظر المؤلف خصائص يمكن التعبير عنهـا بقواعد أصلية مقررة عند جميـع أمم الأرض كسـائر العلوم العقلية ، وموضوعاتها لا تختلف إلاّ في الفروع . ولتطبيق هـذه القواعد في علم الانتقاد ركنان أساسيان ، وهما : النسبة ، وصدق الإرادة .

أما النسبة فالمقصود بهـا صحة نسبة الأشياء إلى الحقيقة لأن عماد النقد وأساسه الصدق ، وموضوعه قصد الحقيقة والتفتيش عن الحقيقة . وأما صدق الإرادة فالمقصود به الفهم والتفهم . وصدق الإرادة في علم الانتقاد كالجاذبية في علم الطبيعيات . قال المؤلف : إن « صدق الإرادة من المتعلم والسـامع والكاتب والقارىء والمصور والناظر هي قاعدة التفاهم . فالمتعلم ينطق ليفهم ، والسامع ينصت ليفهم ، والكاتب يكتب ليبلغ مرامه ، والقارىء يقرأ ليعلم مقصوده ، والمصور يرسم ليكشف للمشاهد فكره وغايته ، والرائي يتأمل ليقرأ ما في نفس المصور . والغرض الذي يرمي إليه جميعهم هو التفاهم . فصدق الإرادة في الفهم والتفهم هو الكاشف لأسرار النفوس . وكلما عظمت إرادة المتكلم أو الكاتب في التفهيم وأوتي ذكاء اللب ، وصرفت إرادة السامع أو القاريء في قبوله كانت أقرب لنقد عواطفه وإدراك أسرار أخـــلاقه وآدابه » (ص : ١٢٧ — ١٢٨) .

٦ — قواعد النقد

لقواعد النقد عند المؤلف سـلم ذو ثلاث درجات : وهي : الشرح ، والتبويب والحكم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

١/٦ – الشرح .

للشرح ثلاثة شروط وهي :

آ – الأول تحديد العلاقة بين المنقود وتاريخ العلوم الأدبية .

لا بدّ في الشرح من النظر في تاريخ العلوم الأدبية لمعرفة منزلة المؤلف بالنسبة إلى عصره ، هل كان مبدعاً أو مقلداً ، مجلياً أو مقصراً ، لأن لكل عصر مذاهب في العلوم والفنون . وما يعدّ عندنا مهملاً أو في عداد الخرافات قد يكون له بالنسبة إلى عصره قيمة كبيرة .

ب – والثاني تحديد علاقة التأليف بما كان من نوعه وبالزمان والمكان اللذين ظهر فيها .

فاذا أردت أن تتكلم على التشريح فلا تملأ كتابك من المسائل المتعلقة بالتاريخ ، وكذلك إذا أردت أن تتكلم على البديع فلا تدخل فيه إلا ما تقتضيه طبيعة ذلك العلم . قال المؤلف : « لقد حشا الجاحظ كتاب البيان والتبيين بكثير من السفاسف ، كقوله : قال وقالوا ، وفلان بن فلان ، فما كان أغناه عن هذه الصنعة والاسناد ، وما الكتاب بكتاب حديث » . وقال أيضاً في كلامه على علاقة التأليف بالزمان والمكان : « كان الجاحظ والمبرد وابن قتيبة . من عصر واحد ، فلذلك كانت كتابتهم من طبقة واحدة . ومع أن أبا اسحق الصابي ، وأبا بكر الخوارزمي ، وبديع الزمان الهمذاني كانوا من عصر واحد إلا أن اختلاف أسلوب الأول عن أسلوب الآخرين يرجع إلى تأثير المكان الذي عاش فيه » . فما على الناقد إذن إلا أن يدقق البحث في ذلك لأن الكاتب إنما يكتب ما يمليه عليه العصر من حوادثه وما تتلوه عليه العادات من تأثيراتها .

ج – والثالث تحديد العلاقة الكائنة بين الكاتب وإنشائه والمصنوع وصانعه . وسبب ذلك كما قلنا سابقاً أن مرآة المرء إنشاؤه . فلما يدل الإنشاء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على المنشئ كذلك تدل أحوال المنشئ على أسرار إنشائه . ولكن هذا القول لا يصدق دائماً لأن للكتاب أحوالاً متناقضة ، فأبو العتاهية كان زاهداً من جهة ، وطماعاً شديد الحرص من جهة ثانية . وبين مذهب ابن سينا المشتمل على فكرة الخير والنظام والعقل والكمال ، وحياته المفعمة بالاضطراب وحب المغامرات والتخليط في الشهوات تناقض حقيقي . لذلك وجب على الناقد أن لا يقصر نقده على كتاب واحد من كتب المنشئ ، لأن ذلك لا يدل على عواطف الكاتب وتأثير الأحداث فيه إلا عند تأليفه ذلك الكتاب . فاذا شئت أن تصل إلى الفائدة المطلوبة وجب عليك النظر في أكثر كتابات المؤلف والوقوف على جميع أحواله :

(١) كسنه عند تأليف كتابه .

(٢) وحالة دنياه من فرح أو حزن أو فقر أو غنى .

(٣) وصحته ، هل كان سليماً أو سقيماً ، ضعيفاً أو قوياً ، عصبياً أو دموياً .

(٤) وأصله ، هل كان كريماً أو لئيماً أو من أواسط الناس .

(٥) وثقافته ، هل تلقى علومه في مدرسة أم هو ابن اجتهاده .

(٦) ومسقط رأسه ، هل المدينة التي نشأ فيها شمالية أم جنوبية ، هل هي شديدة البرد والحر ، أم معتدلة الإقليم .

(٧) ووضعه العائلي ، هل كان متزوجاً أم عزباً ، وهل كان له أولاد أم لا .

(٨) وما مرَّ عليه من أحداث ، هل عشق ، وهل حزن على فقد عزيز أو مال.

(٩) وأخلاقه ، هل كان ممازحاً أم وقوراً ، هل كان يعاقر الخمرة أو يقامر ، هل كان شرهاً أم عفيفاً ، هل كان حليماً ومستقيماً أم كان ماكراً ومخادعاً .

فجميع هذه الأحوال التي ذكرها المؤلف في كلامه على الشرح لا يمكننا تطبيقها في الأدب العربي القديم بسهولة لجهلنا بالكثير من أحوال رجاله وملامحهم وأخلاقهم . دع أن المؤلف لم يشر في استقصائه لهذه الأحوال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إلى ما يحيط بالكاتب من أحوال العمران كطبيعة المجتمع ، ونظام الحكم ، والعادات ، والتقاليد ، والصراع الاجتماعي ، والأحوال الاقتصادية ، فإنّ لجميع هذه الظواهر تأثيراً في حياة الكاتب وهي وإن كانت لاتكفي لتعليل ما يتميز به الكاتب من القدرة على الابداع إلا أنها تساعد على الكشف عن الظروف الخارجية المحيطة به . أن نسبة قوة الابداع إلى عمل المؤلف كنسبة الروح إلى البدن ، فكما أن تشريح أعضاء البدن لايكفي للكشف عن الروح المحركة له ، كذلك استقصاء التأثيرات المحيطة بالمؤلف لا يكفي لتعليل إبداعه .

٢/٦ — التبويب .

وأما التبويب وهو الدرجة الثانية في سلم النقد فالمقصود به تعيين باب الكتاب المنقود ، أو مؤلفه ، وتحديد مرتبته بين أمثاله . وسبيل التبويب الموازنة ، فهي الدليل الناطق والفاروق الصادق الذي يميز الفاضل والمفضول ولها عند المؤلف قسمان .

آ — الأول موازنة المنقود مع سواه من إنشاء المؤلف نفسه . والغرض منها أن نعلم هل الإنشاء إنشاء المؤلف أم هو إنشاء منتحل ادعاه لنفسه أو نسبه غيره إليه لغرض ما .

ب — والثاني موازنة المنقود مع غيره من شعر ونثر أو تصوير أو غير ذلك مما هو من نوعه لمتفنن آخر أو أكثر ليتضح الفرق للناقد .

ج — وفي سبيل تطبيق هذه الموازنة يقسم المؤلف أبواب الشعر بحسب موضوعاتها اثنى عشر باباً مبتدئاً من السهل إلى الصعب ومن البسيط إلى المركب . وهذه الأبواب هي : (١) الحماسة (٢) والحِكَمُ (٣) والعتاب (٤) والزهريات (٥) والغزل والنسيب (٦) والرثاء والتأبين والعزاء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(٨) والمدح والشكران (٨) والهجاء (٩) والوصف (١٠) والقصص (١١) والشعر التمثيلي (١٢) والشعر التخييلي .

وهو يصرح في الفصل الخامس من الجزء الثاني من كتابه بأن تبويب الشعر على هذا النحو الذي ذكره شيء لم يسبقه إليه أحد . ثم يذكر بعد ذلك أنواع الموازنة في كل باب من هذه الأبواب ، فيوازن في باب الحماسة بين سعد بن مالك ، وأبي فراس ، والمتنبي ، ويوازن في باب الحكم بين يزيد بن الحكم الثقفي ، والمتنبي ، والشيخ ناصيف اليازجي ، وفي باب العتاب بين معن بن أوس ، وأبي فراس ، وابن خفاجه الأندلسي والمتنبي والبحتري وفي باب الزهريات بين أبي تمام ، والبحتري ، وابن هاني ، وذي الرياستين وهكذا دواليك . إلا أن موازنته في هذه الأبواب ولا سيما في باب الغزل والنسيب وباب المدح والشكران ، وباب الرثاء والعزاء ، وباب الهجو ، وباب الوصف لاتدل على سلامة ذوقه دائماً . نعم إنه يعلل تقدم المتنبي في وصف المعارك والمواقع الحربية بميله إلى السؤدد والمجد ، ويقدم معن بن أوس في العتاب والبحتري في الزهريات ، والمتنبي في الحكم ، إلا أن موازنته لاتخلو من الأحكام القاسية . كقوله في باب الهجو : « إذا جمع الشاعر في الهجو صفات ليست فيه كانت حاله كحال من أراد تصوير فرس قبيح فصوره حماراً ، وقال : انظروا ما أقبح هذا الفرس ، فيقول الناس : ما أشد حمق هذا الرجل ، ينظر الحمار فيحسبه فرساً ، فيكون بهجائه ذاك قد دعا الناس إلى هجاء نفسه » « الجزء الثاني ، ص ٤٤) .

٣/٦ – الحكم

وأما الحكم وهو الدرجة الأخيرة من سلم النقد فله خمس قواعد ، وهي (آ) فقد المقول والمصنوع (ب) نقد القائل والصانع (ج) نقد المعتدل فيه والمحكي عنه (د) نقد الزمان (هـ) نقد المكان .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

آ ـ نقد المقول والمصنوع :

لنقد المقول والمصنوع ثلاثة أقسام ، وهي : الغاية ، والفائدة ، والمحاكاة . أما الغاية فان الكشف عنها يوصل إلى معرفة أسرار النقد ، لأنه لا عمل بلا غاية فغاية المئذنة إيصال الصوت إلى مكان بعيد ، وغاية الحصن الدفاع . وأما الفائدة فهي ما يعود على المؤلف من ربح معنوي أو مادي . والفرق بينها وبين الغاية أن الغاية هي المقدمة ، والفائدة هي النتيجة .

وأما المحاكاة فهي النسج على منوال من تقدمك في الصناعة لرسم منوال جديد يحاكيك فيه غيرك . ومن الأمثلة الدالة على المحاكاة محاكاة أصوات الطبيعة في اللغة وتقليد ما أحكمت الطبيعة صنعه من الأشياء . فانشاء البيت ، وطلي البناء ، ونسج الشباك والخيام ، وزرع الأشجار ، والنقش ، والتصوير على الخشب والحجر ، والرسم ، والتطريز كلها محاكاة للطبيعة في نظامها . وهذا كله يذكرنا بقول (بوالو) : لا شي أجمل من الصدق ، وصدق الشيء مطابقته لنظام الطبيعة . إن هذا النظام يمنعك كما يقول الحمصي من رسم السمك على الأغصان ، والبركة فوق الشجر . فليس يصح إذن أن تقول إن المحاكاة تحول دون الإبداع والابتكار لأنه إذا كان المراد بالإبداع والابتكار والخواطر العقلية أو المعاني المجازية فهذه لا محاكاة فيها ، وإذا كان المراد بالابتداع والابتكار الاتفاق والاحكام والبراعة وبلوغ غاية التمام فهذه ليس فيها سوى المحاكاة مع زيادة الاتقان والترقي في العمل . وفاته أن المعاني المجازية لا تخلو من المحاكاة ، وأن الموسيقار يجاوز محاكاة الطبيعة إلى إبداع ألحان جديدة لا ينبىء بها تغريد الطير ولا خرير الماء ، ولا حفيف الأغصان ، فإن المتفنن الحقيقي لا يمتاز على غيره بما يضيفه إلى صنعته من دقة وإتقان وبراعة في محاكاة الطبيعة فحسب ، بل يتميز بما يتصف به من روح حي متجدد يطبع الشيء الذي يبتدعه بطابع خاص .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ب — نقد القائل والصانع :

وأما نقد القائل والصانع فله أيضاً ثلاثة أقسام ، وهي : معرفة ما يكرره الكاتب من القول ، ومعرفة ميوله وعواطفه ، ومعرفة غرضه .

أما التكرار فيدل على منازع القائل ، مثال ذلك أن المعاني التي يكررها عمر بن أبي ربيعة أدل دليل على مباهاته بجماله وتدلله بأصله ومنزلته ، لأن ما يقوله المحبون لمعشوقاتهم قد جعله هذا الشاعر في أفواه معشوقاته خطاباً له .

وأما الميول والعواطف فهي كثيراً ما تبعد الكاتب عن الحقيقة وتوقعه في التناقض ، فلا يرى الخير والكمال إلا في ما يحبه ولا يرى الشر والنقص إلا في ما يبغضه كما فعل ابن شداد في كلامه على صلاح الدين الأيوبي في كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية .

وأما الغرض فهو بالنسبة إلى نقد القائل والصانع كالغاية بالنسبة إلى نقد المقول والمصنوع ، إلا أن الغاية أعم والغرض أخص ، لأن الغاية هي ما تقدمها باعث أو دافع يدفعك إلى العمل بحكم الضرورة ، على حين أن الغرض شوق يحدث لك لعمل الشيء .

ج — نقد المقول فيه :

وأما نقد المقول فيه عاقلاً كان أو غير عاقل فينحصر في المقايسة . والمقايسة نوعان : لفظي ونظري . والمقصود باللفظي أن تكون الألفاظ متناسبة مع المعاني ، وأن تختلف الكتابة باختلاف المواقف والموضوعات . والمقصود بالمعنوي اجتناب التناقض في عرض الأفكار .

د — نقد الزمان :

وأما نقد الزمان فالمقصود به معرفة العصر الذي ظهر فيه التأليف ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وله أربعة أقسام : أولها التنقيب عن تاريخ الزمن الذي صنع فيه المنقود وثانيها الوقوف على علوم عصر الشيء المنقود وصناعاته ، وثالثها البحث عن نظام الحكم في عصر الشيء المنقود ، ورابعها الاطلاع على آداب ذلك العصر وأخلاق أهله ومعتقداتهم وملابسهم وأزيائهم وسائر أحوالهم في اجتماعاتهم ومجالس سرورهم وأعراسهم ومآتمهم وغير ذلك .

هـ — نقد المكان :

وأما نقد المكان فالمقصود به الاطلاع على البيئة التي عاش فيها المؤلف . وبهذا النقد قاعدتان : (الأولى) هي البحث عن مسقط رأس المتفنن وبيئته (والثانية) هي البحث عن طبيعة هواء تلك البيئة وموقعها الجغرافي . ولتوكيد ذلك كله يشير المؤلف إلى كلام ابن خلدون على تأثير الهواء في أخلاق البشر ، ويقول إن أهل الأقاليم المعتدلة ألطف الناس نفساً ، وأشدهم ميلاً إلى العلوم والصنائع . وإذا كان أبو تمام والبحتري والمتنبي قد برزوا غيرهم من شعراء زمانهم فمرد ذلك إلى طبيعة بلاد الشام التي نشأوا فيها . ولا عجب أن يفيض صاحب « منهل الوراد » في مدح جهابذة بلاد الشام ويطنب في وصف علمائها وهو شامي المحتد ، حلبي الذوق ، اقليمي النزعة .

فأنت ترى أن المؤلف يصيب كبد الحقيقة في نقد الزمان والمكان ، إلا أنه يكرر في هذا النقد ما قاله في الشرط الثاني من درجة الشرح ، وهو بالاضافة إلى ذلك يسهب في ما لا طائل فيه من الأمور ، ويقحم المواقف المصطنعة ويبالغ في تبسيط الأمور حتى يفقدها روعتها وجمالها .

٤/٦ — بت الحكم :

ولا بدّ للناقد بعد ذلك كله من بت الحكم في المنقود ، فإن النقد لا يكون تاماً إلا إذا تضمّن حكماً على قيمة الشيء . لقد أنكر بعضهم ضرورة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بت الحكم في المنقود لاعتقاده أن دقة الفكر توجب التريّث في الحكم والاعتماد على ذكاء القارىء في الاستنتاج . وهذا خطأ لأن من شروط العلم أن يبت العالم حكمه في ما يعرض له من المسائل . وإذا قلنا للمؤلف : ان هذه الأحكام نسبية ، قال : إن نسبيتها لا تمنع كونها مستندة إلى أساس طبيعي ، ولا يمكنك أن تقول إن هذه الأحكام مستندة إلى العادة ، في الأصل مبنية على الغريزة ، وإذا قلنا له كذلك : إننا لا نستطيع التسليم بوجوب بت الحكم في هذه الفنون لأنها ذوقية ، ولا جدال في الذوق ، قال : ليست هذه المسائل من الأمور المستعصية على الناقد إذا كان سليم الذوق ، نافذ البصيرة فما بالك إذا كانت المسائل الفنية خاضعة لأحكام العقل . وإذا قلنا له أخيراً : إن الناس يختلفون في الحكم على شؤون الفن ، وإنهم لو اتفقوا عليها لأضحى الفن علماً رياضياً أو منطقاً عقلياً ، قال إن في أذهان البشر صوراً غائية بالجمال والحق والكمال تقاس بها قيمة أعمالهم وأقوالهم ، وإن اختلفت مظاهرها باختلاف الزمان والمكان . ولولا ذلك لما أمكننا أن نقدر المضمون العقلي والنفسي والاجتماعي للآثار الفنية التي ننتقدها .

ولبت الحكم في نظر المؤلف قاعدتان : (الأولى) هي الترجيح (والثانية) هي التنزيل أما الترجيح فهو التمييز بين الفاضل والمفضول والحسن والأحسن .

وأما التنزيل فهو ترتيب الشيء وتحديد درجته وتعيين طبقة المتفنن ، وهذا لا يكون إلا على وجه التقريب وصيغة التشبيه .

ومعنى ذلك كله أن قسطاكي الحمصي يعتقد أن هناك قيماً عقلية وفنية وخلقية مشتركة بين جميع الناس أو أكثرهم ، ولولا ذلك لما صحّ بت الحكم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٧ – شروط الناقد

يشترط في بت الحكم أن يكون الناقد صادقاً ، مجرداً من الأنانية ، بعيداً عن الهوى . وجماع ذلك كله :

١ – أن يكون الناقد خبيراً بما ينقده . فالمتبحر بالرياضيات لا يستطيع أن ينقد كتاباً في التاريخ ، والمتخصص في التاريخ لا يستطيع أن ينقد كتاباً في التشريح . الخ . .

٢ – أن يكون الناقد منصفاً في ما يقوله ، لا يغمط إحساناً ولا يموّه إساءة ، ولا يدّعي للمنتقد أشياء ليست فيه ، ولا يبخس المحسن أشياءه .

٣ – أن يتجافى عن الغلو في المدح والإطراء عند إبراز الحسنة ، وعن القدح والازراء عند إيراد السيئة .

٤ – أن لا يخلط بين ما يرى من صنع الشخص الذي ينتقده ، وما يعلم أو يظن من حالته في خاصة نفسه .

٥ – أن لا ينظر إلى ما بينه وبين من ينتقد كلامه من السوابق الشخصية من مودة وموجدة .

فإذا كان الناقد مقلداً أو خاضعاً لهوى النفس ، أو غير خبير بما ينقده ، ولم يوازن بين ما ينقده وما هو من نوعه ، ولم يكن على بينة من أمره في التفريق بين الصحيح والفاسد فإنّه في هذه الأحوال كلها يعد متعسفاً في حكمه متخبطاً في نقده . ولما كان من شرط الناقد أن يكون من مرتبة المنقود كان من الواجب عليه عند نشر انتقاده في مجلة أو كتاب أن يذيله بتوقيعه لمعرفة نسبته إلى المنقود ، لأن التصريح باسمه يوجب عليه التثبت في ما ينقده ويحمله على الوقوف عند حده ، فلا يجسر على التعرض لمن هو

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أعلى منه قدراً ، وأوسع علماً ، وأرفع منزلة . أضف إلى ذلك أنه ينبغي للناقد أن لايخرج في نقده عن موضوع الكلام على الشيء المنقود ، وأن لا يقدم على الانتقاد إلا" بعد أن يطلب من نفسه ما يطلبه من الناس .

٨ — فوائد النقد

للنقد في نظر قسطاكي الحمصي ثلاث فوائد ، وهي :

١ — كشف أسرار الكاتب ، والوقوف على أخلاقه وميوله ، والاطلاع على المستور من أحواله .

٢ — منع الفوضى ، ولجم الألسنة عن الهـذيان ، ومن شرع قويم لكل كاتب عماده احترام القاري ومكافحة المشعوذين من باعة الكلام ، والقضاء على الدعاية الكاذبة لبعض الآراء التافهة .

٣ — إدراك أوجه الجمال في الكلام .

ومع أن للنقد فوائد كثيرة غير هذه لم يصرح بها المؤلف فان علم الانتقاد في نظره علم طبيعي ذو قواعد ثابتة وفوائد عملية محققـة . وإذا كان علم الطبيعيات يقوم على ملاحظة الظواهر الطبيعية لضبط الشروط والأوقات التي تجري فيها ولفصل ما كان جوهرياً منهـا عما كان عرضياً ، فإن علم الانتقاد يقوم على نقد الآثار الإنسانية عقلية كانت ، أو خلقية ، أو فنية لإرشاد الطالب إلى الطريق الواضح والمنهج المستقيم المؤدي إلى ترقية العلوم وتهذيب الأخلاق وتحقيق الجمال ، فنقد العلم وسيلة للكشف عن الحقيقة ، ونقد الأخلاق وسيلة لتعميم الخير ، ونقد السياسة وسيلة لنشر العدل وتأييد العمران وتشييد أركان الحضارة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٩ ــ خاتمة

تلك هي قواعد النقد وفوائده ، ووسائله وغاياته ، وهي توجب على الناقد أن يكون ذا روح حي فلا يسلم بصحة قول دون السؤال عن قيمته من ناحية مضمونه وأصالته وصدقه ونسبته إلى غيره لإخراج الزيف منه وغايته هي التقويم أي إبراز المحاسن ، والمساويء ، والمقارنة بينها . وجماع ذلك كله تحديد العلاقة بين الكاتب وإنشائه ، وموازنة الكتاب المنقود مع غيره ، ونقد القول والقائل والمقول فيه ونقد الزمان والمكان ، وبث الحكم .

لا شك أن موضوع هذا الكتاب مبتكر في العربية وإن كان الكتّاب المعاصرون قد طرقوه ، أو طرقوا بعض أجزائه . مثال ذلك قول صاحب المقتطف : « الانتقاد هو النظر في ما يكتبه الكاتب لإظهار مليحه وقبيحه قصد تقديره حق قدره ، وتنبيه الكاتب إلى ما أحسن فيه ليزيده حسناً ويرقيه كمالاً وإلى ما أخطأ فيه ليصححه ، وما قصّر فيه ليكمله »(١) . وقال أيضاً : « الانتقاد فن مداره على الفنون الجميلة خصوصاً وسائر الفنون والعلوم عموماً ، وهو ضروري لترقية علوم البشر ، وفنونهم ، وصناعاتهم ، وعاداتهم ، ونحوها . والغرض منه بيان ما قرب من غاية الجمال والكمال ومدحه وتحسينه حتى يراه كل طالب وما بعد عن تلك الغاية وذمه وتهجينه ليجتنبه الطالب »(٢) وقال أيضاً : « وإذا علمت أن للبشر صوراً غائية للجمال والكمال والجلال ليقاس بها جمال أعمالهم وكمال أقوالهم وأفعالهم ، وأن الغرض من الانتقاد حثهم على البلوغ إلى تلك الصور الغائية علمت أن الفائق في الانتقاد فائق

---

(١) راجع مجلة المقتطف ، الجزء الثالث من المجلد الثاني عشر ، سنة ١٨٨٧ ، ص ١٦٢ .
(٢) المصدر نفسه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في أمرين : قوة التمييز والفكر ، وسمو الصورة الغائية المرتسمة على صفحات ذهنه »[١] . وقال أخيراً : « يجب أن يكون الناقد بصيراً خبيراً ، يتحرى الصدق في القول ، والإخلاص في النية ، منصفاً ، عادلاً ، باحثاً ، منقباً ، قاصراً النظر على ما قيل ، مغضياً عمن قال ، راغباً في إحقاق الحق ، وإزهاق الباطل لترقية العلوم وإعلاء الآداب والفضائل »[٢] .

وليس في ما قاله صاحب « منهل الوراد » زيادة على ما قاله صاحب المقتطف في التعريف بالنقد وفائدته وبيان ما ينبغي للناقد أن يتقيد به من الشروط في بت الحكم . كلاهما موسوعي النزعة علمي الطريقة كأكثر رجال القرن التاسع عشر الذين يقررون أن صور القيم الإنسانية خاضعة لأحكام العقل . إلاّ أن الأمر الذي يتميز به صاحب كتاب منهل الوراد هو استقصاؤه لقواعد النقد وجمعها في علم واحد أطلق عليه اسم علم الانتقاد . وإذا كان النقاد كما يقول (فلوبر) نحويين في زمن (لاهارب) ومؤرخين في زمن (سنت بوف) فإن صاحب كتاب منهل الوراد يريد منهم أن يكونوا علماء يحللون الأثر الفني تحليلاً دقيقاً للكشف عما يستمده من التاريخ والطبيعة وينقدون مضمونه نقداً عقلياً للكشف عما ينطوي عليه من العناصر .

والدليل على ذلك أن أحسن الشعر في نظر المؤلف ما أمكنك حله وقلبه إلى نثر لا يفقده روعته وجماله فإذا فقد روعته بعد الترجمة أو التحليل فاحكم عليه بأنه شعر تافه .

إن سر التأثير رهن بسمو المعاني وجمال الألفاظ معاً ، فكأن للأدب صورة ومادة ، روحاً وجسماً . أما الروح فهي المعاني وانساقها ، وأما الجسم

---

(١) المصدر السابق .
(٢) المصدر نفسه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فهو الألفاظ وتراكيبها ، وكما لا يمكنك فصل الروح عن الجسم في الكائنات الحية ، فكذلك لا يمكنك فصل المعنى عن اللفظ في الأدب ، لأن الألفاظ المنفصلة عن المعاني أشباح بلا أرواح . ومع أن للفظ عند قسطاكي الحمصي رمز للمعنى أو وسيلة للتعبير عن الفكرة والعاطفة ، فإنّ هـــذه الوسيلة لا تستمد بلاغتها إلا من كونهـا واضحة الدلالة . فرب وسيلة كانت أقرب إلى تحقيق الغـاية من غيرها ، بل رب وسيلة كانت جميلة وأخرى كانت قبيحة ، ومعنى ذلك كله أنه لا بد في الأدب من الجمع بين الصورة والمادة بين الروح والجسم ، وبين الجوهر والغرض ، فليس يصح إذن تقديم المعنى على اللفظ ولا اللفظ على المعنى ، وإنما يجب الجمع بينها في وزن واحد من الاتساق . قال قسطاكي الحمصي : « فالكلام إما أن يكون صحيح المعنى فاسد التعبير ، وإما أن يكون صحيح التعبير فاسد المعنى ، وإما أن يكون فاسدهما معاً وصحيحهما معاً » وهذا النوع الأخير من الكلام هو النوع المفضل عنده وإذا كانت المعاني هي المواد الأولية التي يصوغها اللفظ فإن الألفاظ كثيراً ما تنير الرؤى وتوضحها ، وترمز إلى أكثر مما يراه المرء بعينيه ، أو يسمعه بأذنيه ، وتدعوه إلى التفكير في ما يعتقده ويراه ، حتى إذا انتهى من قراءتهـا خيل إليه أنها تعبر عن عالم أوسع من عالمه الحقيقي ، وهذا كله يدل على أن وظيفة الألفاظ لا تنحصر في تثبيت المعاني ، بل تشتمل أيضاً على قوة الإيحاء بها .

وبعد فان كتاب « منهل الوراد » لم يحظ في الأدب العربي الحديث بمـا حظي به غيره من العناية ، لا لتقصيره في التعريف بجوانب النقد ، أو لتقصيره في تطبيق قواعده تطبيقاً محكماً ، بل لتسرّع مؤلفه في تشييد بناء شاهق لم تتوافر لديه جميع عناصره . ومع أنه أول كتاب حاول تقييد قواعد النقد بأحكام

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العقل فان النقاد الذين جاؤا بعده لم ينهجوا نهجه لإكمال ما قصر فيه . وربما كان لتغلّب الاتجاه الذاتي على الاتجاه الموضوعي في النقد الأدبي الحديث أثر في تغطية مجهود الحمصي بأغطية التغافل ، فان كتابه لم يحظ في زمانه بناقد يبرز محاسنه . وما كتبه هو نفسه عن نفسه في كتابه « أدباء حلب ذوو الأثر » وما كتبه عنه بعد ذلك سامي الكيالي في كتاب الحركة الأدبية في حلب والدكتور محمد زغلول سلام في كتاب النقد العربي الحديث ، أصوله وقضاياه ومناهجه ، والدكتور اسحق موسى الحسيني في كتاب النقد الأدبي المعاصر في الربع الأول من القرن العشرين وغيرهم ، كل ذلك لم يكشف عن ميزة هذا الرجل ، وإن أدّى توجيه الأنظار إليه . لقد قال الدكتور إسحق موسى الحسيني في تعليقه على كتاب منهل الوراد :

١ — إن فيه عيوب البداية من فوضى وسطحية واستطراد ونقل وتعميم .

٢ — وانه متأثر بالأفكار الفرنسية كثير النقل عنها .

٣ — وإنه خال من تقسيم الأدب إلى أنواعه الأولية من شعر وقصة وأقصوصة ومسرحية وترجمة ومقال ، وهو المذهب الحديث في النقد .

٤ — وانه نظر إلى النقد من زاوية كبيرة تخلط بين النقد الأدبي ، والنقد العلمي ، والنقد التاريخي ، والنقد الموضوعي .

٥ — وزعم أن للنقد قواعد وأحكاماً قامت على أساس لا يتزعزع ولا يتبدل ولا يقبل التغيير في كل زمان ومكان . وهذا غلوّ ولذا عده علماً ، وما هو بعلم بل هو فن يخضع لتطور الذوق والعصر .

٦ — وله فضل السبق في الأدب الحديث وفيه فوائد لا سيما ما يتعلق بالموازنة بين فنون الشعر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٧ — وان خير معيار للحكم عليه موازنته بما كتبه أحمد أمين في النقد الأدبي أو بما ترجم عن اللغات الأجنبية ، فهو يبدو بداية أولية تدخل في أواخر القرن التاسع عشر حين كان النقد في أول مراحله في العالم العربي ، ولكنه مع ذلك أول كتاب في الموضوع .

وهذا كله حق ، إلا أن الحكم النهائي على قيمة هذا الكتاب يوجب التفريق بين فن النقد العام من جهة ما هو صناعة نظرية تشمل جميع جوانب النشاط الإنساني ، وبين فن النقد الأدبي من جهة ما هو جانب واحد من جوانب النقد العام . وإذا كان صاحب « منهل الوراد » قد قصَّر في النقد الأدبي وأهمل الكثير من جوانبه لجهله بالمذاهب الحديثة في النقد ، فمرد ذلك إلى طموحه في الطلب ، وإلى اعتقاده أنه يستطيع أن يكون فيلسوفاً ، وما هو بفيلسوف . لقد كان النقد عند قدماء الفلاسفة قسماً من المنطق ، وهو النظر في القول أو الفعل لتقدير نسبته إلى الحق والخير والجمال . ومعنى ذلك أن التقديس حكماً فقط ، وإنما هو حكم على حكم . وليس في كتاب « منهل الوراد » ما يدل على أن المؤلف استطاع أن يستوفي قواعد فن النقد العام من جهة ما هو مذهب فلسفي ، أو تحقيق تاريخي ، أو طريقة علمية . فالنقد الفلسفي وسيلة لمعرفة قيمة المعرفة وقيمة الفعل . والنقد التاريخي وسيلة لتمحيص الأخبار ، وتعليل الوقائع ، والنقد العلمي وسيلة للكشف عن قوانين الطبيعة . ومهما يكن من أمر فاننا لا نستطيع أن نطلب من قسطاكي الحمصي ما نطلبه من أحمد أمين وشكري والمازني والعقاد ونعيمة وطه حسين ومحمد مندور وعبد المنعم خفاجي ، ومحمد خلف الله ، وشوقي ضيف وغيرهم ، فقد يغتفر في الابتداء ما لا يغتفر في الانتهاء . وقد يميز الشعر كما قال (ابن رشيق) من لا يقوله ، كالبزاز يميز من الثياب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ما لم ينسجه والصيرفي يميز من الدنانير ما لم يسكبه . ومع ذلك فان قسطاكي الحمصي الناقد شارف الابداع على طريقته ، وإذا قيل إن الناقد أقل إبداعاً من الشاعر والكاتب ، وانه لو استطاع أن يكون مبدعاً لما اختار لنفسه صفة الناقد الذي يكتفي بتحليل آثار غيره ، قلنا إن في هذا القول غمطاً لقيمة النقد ، لأن النقد لا يخلو من الإبداع . وليس كل كاتب بقادر على النقد . ولو أوتي قسطاكي الحمصي من القدرة على التحليل ما تميز به من القدرة على التركيب لشارف الإبداع الأدبي ، وعذره أنه كان أول من حاول في الأدب العربي الحديث إقامة فن النقد على قواعد ثابتة ، ولا يشترط في واضع أسس الفن أن يستوفي جميع مسائله .

جميل صليبا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net